أحوال وأوضاع مدينة تبسة الإسلامية من خلال المصادر الجغرافية والتاريخية -قراءة تاريخية أثرية-

أ/ جمال عناق - جامعة تبسة -

ملخص:

ظلت معظم الدراسات لموضوع تاريخ وتراث تبسة في العصر الوسيط مقتصرة على المعطيات العامة الوارد ذكرها في المصادر التاريخية. ولم تلق الحظوة اللائقة وبنفس الكيفية من الباحثين الذين تناولوا مثلا آثار وتاريخ مدينة تبسة في العصر القديم، خاصة وأن خارطة المواقع والمدن في الشمال الإفريقي في العهد الروماني تكاد تكون مكتملة، فيما ضل عدد كبير من المدن والمنازل الواردة ذكرها في كتب المسالك والرحلة مجهولة الموقع والموضع.وللخروج من هذا المسلك غير النافذ ينبغي اعتماد طرق جديدة في البحث، تنطلق من الجزئية إلى الكل لاستقرائها والوصول إلى الهدف والموضوع التاريخي، معتمدة في ذلك على مقاربات متعددة الاختصاصات تزاوج بين علم الآثار والتاريخ والأنثروبولوجيا، ونعتقد أن إدخال هذه المقاربة المتعددة الاختصاصات، قادرة على حل الغاز شتى، وتوضيح الصورة الحقيقية لتاريخ حاضرة تبسة، وبقية الحواضر الإسلامية في المغرب الأوسط من خلال معرفة عوامل نشأتها وأسباب تقهقرها الحضاري.

Abstract:

Most historical studies of Tebessa heritage in medieval eara were just talking about general data mentioned in historical resources, and it did not find any interest from the researchers who talked about the ruins and Tebsesa history in ancient time , especially that the map of certain towns and sits in the north of Africa was mostly completed in Roman area, while many towns sits and homes stay unknown ,that is why we may follow other ways of research based on starting from the specific to general to achieve our aims and to get the historical subject by using the combination of anthropology and archeology , so we think that this methods can be solutions to know the reality of Tebessa history and the other Islamic civilizations in the medieval Maghreb, through knowing the reasons of its flowerishment and its falling.

مقدمة:

إن رسم وإعادة تاريخ الحواضر كحاضرة تبسة القديمة هي إحدى الأهداف الرئيسية لإعادة بعث تراثها وإحيائه من جديد، ولما لذلك أيضا من أهمية عظمى في معرفة التخطيط العام للمدينة الإسلامية التي قامت على أنقاض المدينة الروماني في القديم. التي لها خصوصياتها العمرانية التي تشكل رمز الهوية والانتماء. فقد كان الانتقال من مرحلة التمدن والتحضر إلى مرحلة عدم الاستقرار خاصة في العهد البيزنطي أثره البالغ على المدينة الإسلامية فتطلب تحولا جذريا في البنيات الاجتماعية والنظم التقليدية التي توارثها المجتمع جيلا بعد جيل؛ وهو في كل ذلك كان محافظا على تقاليده وعاداته التي طبعت شخصية أفراده وبنياته المركبة في العلاقة بين ما هوديني واقتصادي واجتماعي وثقافي وعمراني والذي لعبت فيه العوامل الطبيعية والمناخية دورا بارزا في تحديد معالم هويته العمرانية والثقافية .فمدينة تبسة الإسلامية إذن كمجال تشكل من التراث العمراني الروماني والمدن التاريخية، وهي ذات حمولة ثقافية واجتماعية غنية بالرموز والدلالات. تحتاج منا إلى إعادة بعثها من خلال دراستنا لكل المتغيرات التي طرأت عليه في الفترة الوسيطة معتمدينا في ذلك على نقد للمصادر العربية من خلال ما جاءت به من إخبار حول مدينة تبسة.

ومن غير شك، فان تمركز هذه المدن في رقعة شاسعة موازية لخط الليمس(Limes) الروماني تقريبا، والذي يشكل خطا فاصلا بين مناطق الجنوب القاحلة، وبين المناطق الشمالية الخصبة. بالإضافة إلى إن هذه المدن تمركزت في مواضع ومواقع محددة ونسب بعضها إلى هذه المواقع كظاهرة طبوغرافية وطبونيمية كواد ريغ وارجلان وواد ميزاب. وعلى أبعاد مسافات متقاربة في هذه البيئة الجافة، ولذلك ستثار تساؤلات عدة حول الهدف من وجودها أصلا.؟؟ فهل بنيت لتكون محطات استراحة وإقامة مؤقتة للقوافل التجارية؟؟، أم بنيت لأغراض شتى مدنية وعسكرية،؟؟ .ولهذا فهي تشكل -أي ظاهرة بناء المدن وانتشارها- موضوعا خصبا ضمن التاريخ والتراث المعماري الإسلامي. وسيصبح موضوع العمران الإسلامي يشكل واجهة جديدة ضمن الدراسات المصدرية النقدية.

ولكن من المؤسف انه بالرغم مما أنجز من بحوث ودراسات بخصوص هذا الموضوع الهام، فهوقليل جدا مقارنة مع ما وصل إلينا من بقايا وأثار هذه المدن المتناثرة هنا وهناك، ويعني وبكل بساطة أن نسبة كبيرة لا تزال مجهولة الهوية، لم تحض بالدراسة التاريخية والأثرية على غرار ما حظيت به نظيرتها في المشرق الإسلامي.[1] وتتجلى أهمية دراسة هذه الحواضر لكونها تمثل النمط

الحضري الأصلي الذي وصل إلينا فقد بقيت منذ الفترة الوسيطة، وعلى امتداد الفترة الحديثة أهم المراكز الحضرية بالمجال الجغرافي سواء بالنسبة للمغرب الأوسط أو المغرب الإسلامي بصفة عامة[2].بالإضافة إلى أن هذه الحواضر يبدو فيها الجانب الديني والاجتماعي والسياسي والزراعي ومن ورائه نظام الري مرتبطة إلى حد بعيد.

فالجانب الديني(الزوايا،المرابطين،الأشراف) مرتبط بالجانب الاجتماعي والجانب السياسي المتعلق بموضوع الأشراف من حيث التبعية والولاء طبقا للإرث التاريخي أما نظام الري فيمثل الانقسام الحقيقي للنظام الاجتماعي لسكان المناطق الجافة والصحراوية، والمكانة الاجتماعية والاقتصادية لكل شخص يملك قطعة ارض مروية أو مسقية[3]على اعتبار إن ركائز العمران هي البنية الاقتصادية المستندة على الزراعة السقوية وتجارة القوافل[4].

لقد استوقفتنا من خلال دراستنا لهذا الموضوع إشكالية المتغيرات التي تتسبب في تدهور بعض الحواضر واندثارها وليس اقل من ذلك حاضرة تبسة، لأنها مثلت الاستثناء الحضري الوحيد الذي تأثر بالمجال البدوي فانعكس بالسلب على استمرار ازدهار المدينة كما كانت في سابق عهدها في الفترة الرومانية. وان كانت بعض التقاليد الشبه الحضرية المرتبطة بالاستقرار التجاري ظلت تنوء بإرث البداوة ولم تتخلص منه، بل زاوجت بين أنماط عيش مجموعتي الرحل والمستقرين، وهي نفس المزاوجة التي كانت قد قامت على أسسها أنماط الحياة الحضرية بالنسبة إلى الإسلام المبكر[5]. بيد إن ثقل الإرث البدوي بهذا المجال شكل عائقا جديا حال دون قيام وازدهار وانبعاث مدينة تبسة من جديد. لذا فان دراسة هذا الموضوع لا يطرح إشكالية واحدة بل يطرح إشكالات متعددة، فالإشارات الواردة ضمن المصادر العربية في الفترة الوسيطة، حول حواضر ومعالم التراث المعماري الإسلامي في المغرب الوسيط لا تمكننا من إعادة بناء وتركيب تاريخ هذه الحواضر ومعالمها الأثرية والتاريخية . فتلك الإشارات يعوزها الكثير من الدقة لعدم تمكيننا من بناء مشهد كامل للحياة بتلك الحواضر في العصر الوسيط، ولان التأريخ المحلي له أهمية قصوى في عملية إعادة كتابة التاريخ الوطني، وذلك لما توفره الدراسة المونوغرافية، المحدودة في مجاليها الزمني والمكاني، من إمكانية التحري المجهري حول الأحداث والوقائع التي عاشتها المناطق والجهات المختلفة من البلاد، والكشف عن حقيقة مجرياتها، والتعمق في دراسة مختلف التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها هذه المناطق، عن طريق الاستثمار المكثف للإمكانيات الهامة التي توفرها الوثائق المحلية خاصة المخطوطات التي

تزخر بها خزائن المكتبات سواء أكانت خاصة أم عامة. وهوأمر لا محالة، أنه سيمكن من تجاوز الأحكام الجاهزة، والتعميمات المفرطة التي تسبح فيها الدراسات التاريخية التي تتناول التاريخ العام للمغرب الإسلامي.غير أن الكتابة التاريخية المحلية ، والمتعلقة خاصة بتاريخ مدينة تبسة على وجه الخصوص، تواجهها العديد من الصعوبات والعوائق التي تجعل الإقدام على اقتحام مجالها أحيانا من قبيل المغامرة. وسنتطرق من خلال هذا العرض إلى جانب هام من هذه الصعوبات، والمتعلق أساسا بمسألة ندرة المعلومات الواردة في مختلف المصادر التاريخية التقليدية. وذلك بالرغم من أهمية الأدوار الطلائعية التي لعبتها تبسة في تاريخ المغرب الإسلامي، سواء قبل الفتح الإسلامي أو بعده، هذه الأدوار التي لم يبق منها غير صدى باهت تناقلته الأجيال المتعاقبة عبر العصور. فما هي إذن الأسباب الكامنة وراء عزوف المؤرخين عن تدوين الأخبار ؟ وهل هنالك ثمة مصادر تاريخية بديلة تمكّن من اختراق هذا الصمت المطبق؟ وما هي الصعوبات التي يطرحها استثمار هذه المصادر البديلة بدورها؟.

يقودنا هذا الأمر طرح الصعوبات المتعلقة بتاريخ هذا الأقاليم القديمة، والمتمثلة في مشكل رئيسي هو عدم توفر أية معلومات تاريخية مدققة عن هذه الفترة.ويرجع السبب في ذلك إلى عوامل عديدة يمكن إجمالها فيما يلي:

عدم انتشار الكتابة، خلال العصور القديمة، بشمال إفريقيا على نطاق واسع، وذلك لأن الاحتلال الروماني أجهض تطور تجربة الممالك الأمازيغية القائمة، مما حال دون تطور نظمها الإدارية والجبائية التي قد تكون مدعاة لانتشار الكتابة.

ورغم أن تاريخ المغرب الإسلامي قد لقي اهتماما من طرف المؤرخين المسلمين، فإن هؤلاء أهملوا تتبع أخبار المنطقة في الفترة السابقة على الفتح، باعتبارها فترة شرك وجاهلية مذمومة، وكذا لما قد يثيره الحديث عن هذه الفترة من حساسيات من شأنها أن تهدد رابطة "الأخوة الدينية" التي انبنت عليها علاقات العرب الفاتحين بالشعوب المفتوحة.

لقد أدت العوامل السابقة إلى غياب مطلق للتدوين التاريخي عن هذه المرحلة من تاريخ المغرب عموما وتاريخ تبسة على وجه الخصوص، سواء بالأمازيغية أو بالعربية. باستثناء ما ورد في كتب النسابة من معلومات عن أصول القبائل الأمازيغية وتحركاتها، وهي معلومات لا يمكن الركون إليها بالنظر للدوافع المتحكمة فيها، فضلا عن طبيعتها التي تبتعد كل البعد عن منطق الكتابة التاريخية الحقة.

وإذا كان المؤرخون قد اعتادوا اللجوء إلى المصادر الأجنبية، لاستقاء بعض ما ورد فيها من أخبار المنطقة قبل الفتح الإسلامي، وخصوصا بعض الكتابات القرطاجية أو الرومانية. فإن تاريخ القرى المستحدثة أو القصور والتي كان لها شأن كمدينة تبسة ظلت خارج دائرة أضواء هذه الكتابات في العصر الوسيط، فالقرطاجيون اهتموا أساسا بالمراكز والمدن الساحلية في إطار نشاطهم التجاري البحري، في حين أهملوا المناطق الداخلية ، في حين تركز اهتمام المؤرخين الرومان أساسا على المناطق الخاضعة لنفوذهم المباشر الذي لم يتجاوز "خط الليمس"(Limes)، نظرا لضراوة المقاومة الأمازيغية،[6].ويبقى الغياب المطلق للبحث الأركيولوجي بالمنطقة، والذي بإمكانه أن يعوض غياب الوثائق والنصوص المكتوبة، لفك طلاسم بعض القضايا الحاسمة في تاريخ هذه القرى والمدن والقصور كمسألة الموقع وتاريخ التأسيس والذي يشكل عائقا جوهريا أمام تطور البحث في تاريخ المدينة الإسلامية، ويحول دون تكوين تصور علمي عن مرحلة التاريخ القديم بها[7].ورغم أن اسم المدن والمسالك بدأ يتخلل كتابات مؤرخي العصر الوسيط وحتى الحديث، فإن الكلام عنها كان يتم عرضا لا غرضا، وما أبعد الحديث العارض عن استيفاء التفاصيل، وترتيب الوقائع، وتفسير الأحداث. لقد ظلت المعلومات الواردة عنها في كتابات المؤرخين التقليديين المغاربة –إضافة إلى تقطعها واختصارها اللذين تقتضيهما الاختيارات المنهجية– مطبوعة بنوع من الانتقاء الشديد لما ينبغي ذكره أو ما يجب التغاضي عنه من أخبارها، وهو انتقاء لا يجد مبرره إلا في المواقف السياسية والمذهبية لهؤلاء المؤرخين من التطورات التي عرفتها التجمعات السكانية والقرى والقصور عبر تاريخ الطويل. ومن ثمة كان صخب الأحداث التي عاشتها غالبا ما يترجم إلى صمت مطبق في كتابات المؤرخين، وهو ما خلق لدينا تناقضا صارخا بين حقيقة الدور الذي لعبته المدينة في تاريخ المغرب الإسلامي من جهة، والحيز الذي تحتله في كتابات المؤرخين من جهة ثانية[8].

ولذلك يمكننا إجمال هذه العوامل المسببة في هذه الوضعية إلى عامل مهم ورئيسي وهو العامل المنهجي، والذي يرتبط بنظرة مؤرخي المغرب الإسلامي التقليديين لعملية التأريخ، فهولا يهتم إلاّ بتحركات الشخصيات "الرئيسية" التي يعتبرها صانعة للأحداث وفاعلة فيها، فيكتب تاريخه متتبعا هذه التحركات. ومن ثم فإننا نجد هذا المؤرخ في نهاية المطاف لا يكتب سوى تاريخ شخصيات نافذة، وسلالات حاكمة، وعواصم متعاقبة. كما أن اهتمامه بتعقب الأحداث السياسية البارزة يبعده عن الالتفات للوقائع الاقتصادية والاجتماعية، والوقوف عندها بما يكفي من الدقة والتمعن. وبما أن تلك الشخصيات عادة ما تستقر بالعواصم، فإن هذه الأخيرة تستأثر في

الأغلب الأعم باهتمام المؤرخ، الذي عادة ما لا يعير انتباهه للمناطق البعيدة عن المركز(العاصمة) إلا من خلال ما تمليه تحركات شخصياته "الفاعلة" على مسرح البلاد، ولا يؤرخ لها إلا من خلال "حركة" لردع تمرد قبلي أو لاستخلاص الجبايات...ورغم ذلك لا يستطيع الباحث أن يستغني عن هذه المصادر بسبب ما تحمله من معلومات وان كانت قليلة وعامة. وان يستنجد بالمصادر الأثرية وغيرها... وهذا ما سنراه في هذا البحث من خلال رؤية سريعة لهذه المصادر خاصة منها كتب المسالك والرحلة التي قدمت لنا بالرغم من ضالتها وتجزئتها أوصافا مهمة عن موقع مدينة تبسة، فالمؤرخون العرب الأوائل وان كان القليل منهم قد زارها فعليا، اعتبروها مدينة كبيرة لكن تركت نفوذها وازدهارها منذ قرون خلت.

لقد ظهرت مدينة تبسة في المؤلفات التاريخية العربية منذ القــرن 4ه/10م حين مر ذكرها عند المقدسي وحدد المسافة بينها وبين سطيف وهو محــور طريق بين المغرب الأوسط وافريقية[9]مرورا بالطريق الروماني الرابط بين تبسة وقرطاجنة وتظهر تبسة في الكتابات اللاحقة التي يمكن حصــرها فــي 07 مصادر كحاضرة كان لها شان لكن فقدت أهميتها كنتيجة لتسلط البــداوة عليها.فمن الناحية التاريخية تمتد هذه الكتابات زمنيا من المقدسي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي إلى محمــد بــن الحســن الوزان في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. والذي يبدو مــن خلال إفادته انه قام بزيارتها وقدم عنها معلومات تعطينا رؤية إضافية عــن أحوالها وما تبقى من خرابها كنتيجة للحروب التي دارت على أسوارها.

إن تحليلنا لهذه الكتابات طرح علينا العديد من الإشكاليات:

الإشكالية الثانية تتمثل في عدم تحري الدقة، ذلك أن ثلاثة فقط من الذين تحدثوا عنها هم الذين زاروا المدينة بالفعل الأول وهو صاحب الاستبصار والذي يمكن ضبط زيارته لها حوالي منتصف القرن السادس الهجري[10]والثاني ابن خلدون الذي زارها حوالي سنة سبعمائة وثلاثة وثمانون وفي الأخير محمد بن الحسن الوزان زارها حوالي سنة 921ه/1516م في رحلته إلى الحجاز[11].

الإشكالية الثانية: تتعلق بمضمون هذه الكتابات ذلك أن اغلبها يكرر نفس المعلومات. وبالرغم أن كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد الله البكري سنة 453ه/1068 الذي نستطيع أن نلمس في كتاباته نوع من الواقعية التاريخية والاختصار المفيد في مثل هذه الحالات بالإضافة إلى انه سيكون المرجع الذي سيعتمد عليه بقية الجغرافيين والرحالة رغم انه لم يغادر قط بلده

الأصلي الأندلس واكتفى بما جمعه من معلومات عن روايات التجار أو الحجاج الذين زاروا ومروا بالمدينة. في حين أن صاحب كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي (336هـ 380-هـ)، وقد كان هو الآخر شاهد عيان لتطور مدينة المغرب الإسلامي في القرن الرابع الهجري مع يتميز به كتابه من وصف جيد مع ذكر للعجائب والمسافات قد اكتفى فقط وللأسف بتخصيص سطر واحد عند تحديده للمسافةالتي تربط بين مجانة وتبسة "[12]ولكن عزائنا في أخبار القرن السادس الهجريكان لدى صاحب الاستبصار فهو المؤلف الوحيد الذي خصص حوالي صفحة كاملة لمدينة تبسة ورغم انه كان شاهد عيان وهذا ما أثبته بقوله((ولقد دخلتها(يقصد تبسة) فأعطاني انسان من اهلها طلسما)) [13]ورغم هذه المعاينة التي كشف فيها عن أحوال مدينة تبسة بعد مرور حوالي قرنين منذ ان تكلم عنها البكري فقد استرسل في ذكر بعض التفاصيل رغم أهميتها الميثولوجية وكنا نأمل أن يزيدنا تفصيلا –وهو الذي زار مدينة تبسة– عن أحوالها ومعايش أهلها ومذاهبهم ومصادر دخلها ونظمها العمرانية، ولكن ومع ذلك يبقى هذا المصدر من أحسن وأكثر مصادر القرن السادس الهجري التي تكلمت عن هذه المدينة بالرغم من تكرار بعض المعلومات والتي اخذ بعض منها عن البكري أو كتاب الإدريسي. [14]

ومن بين المؤلفين المشارقة الذين تحدثوا وخصصوا كلاما عن مدينة تبسة والذي يبدو انه قد عاصر صاحب الاستبصار نجد ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان وبالرغم أن معلوماته تعتبر مكملة لمعلومات عما سبقه من الجغرافيين غير انه يورد لنا إشارة ومعلومة مهمة حول صناعة النسيج التي كانت تشتهر بها ولا يزال مدينة تبسة. [15].وأما كتاب ، مراصد الإطلاع لعبد المؤمن بن عبد الحق(المتوفى: 739ه) لم يخصص لمدينة تبسة إلا سطر واحدا ذكر فيه أن هذه المدينة قد خربت معظمها ولم يتبق منها إلا القليل. [16]وأما عندما نأتي إلى القرن السادس عشر فنجد ان الحسن الوزان يكرر نفس المعلومات التي صاغها قبله الجغرافيون ويضيف عليها بعض الأحكام الشخصية على سكان تبسة في تلك الفترة ولا نعلم مدى مصداقية هذه الأحكام بالرغم من تبريراته حول هذا الموضوع. [17].وتجدر الإشارة إلى أن سبب تكرار لنفس المعلومات عند معظم الجغرافيين القدامى قد يكون مرجعه اعتمادهم على أهم المصادر التي كانت متوفرة بين أيديهم، مما جعل معلوماتهم متشابهة ولا تتغير الا من حيث الكلمات المستعملة أو من حيث إضافة بعض الافتراضات الغير المبنية على أسس علمية. [18]ويمكن إجمال

أهم المحاور التي تناولتها هذه المصادر المكتوبة في حديثها عن مدينة تبسة إلى خمسة معطيات رئيسية وهي:

1-**المعطيات التاريخية:** تتفق جميع المصادر على أن مدينة تبسة هي مدينة قديمة سابقة للعهد الإسلامي من خلال استخدام مصطلحات تتكرر كثيرا في المصادر الجغرافية والتاريخية وهي:

(مدينة اولية فيها اثار للاول كثيرة ، بلد قديم به اثار الملوك،بلد قديم، مدينة قديمة ازلية، فيها أثار كثيرة للأول، بلد مشهور من افريقية، مدينة عتيقة حصينة). ولعل ورود مثل هذه المصطلحات تأكد على اهمية مدينة تبسة قديما وازدهارها ايام الرومان، ولكن دوام الحال من المحال لاننا سنجد ان اوضاعها ستتغير تماما في العصر الوسيط خاصة بعد القرن الرابع الهجري لنجد نفس هذه المصادر متفقة على مصطلح مشترك وهو"**الخراب**" الذي تعرضت له هذه المدينة. وللاسف فقد استمر هذا الخراب طويلا ليأتي الحسن الوزان في القرن السادس عشر ليرثي حال المدينة.وهذا الخراب يعتبر كظاهرة تاريخية قروسطية تشترك فيها الكثير من مدن المغرب الاسلامي كما قلنا في بداية بحثنا،ومعظم هذهالمصادر تتفق على ان مدينة تبسة قد تعرضت لحروب طاحنة منذ العقود الاولى للقرن الرابع الهجري خاصة الحروب التي دارت بين الشيعة الفواطم والاباضية النكارية بزعامة ابويزيد مخلد بن كيداد هذا الاخير الذي دخل الى المدينة صلحا[19]لكن بعد ان خرب جزءا من سورها وبيوتها[20].واما الشيء الثاني فمرجعه الى الهجرة الهلالية والضغط الاقتصادي والتجاري وحتى الديمغرافيالذي مورس عليها والذي ادى الى الاختلال في النظام الجمعي والاقتصادي وادى الى تغير في ديمغرافية هذه المدينة كنتيجة لانعدام الامن **(ولم يبق بها الا مواضع يسكنها الصعاليك)** [21]كما قالياقوت الحموي في القرن 06ه/12م. وهذا دليل على تردي الاوضاع بها الى مستوى الحضيض افقدها مكانتها كحاضرة لتصبح مجرد موضع يخشاه عابري السبيل.ما جعل ابن خلدون (722-808هجرية) يدرس هذه الظاهرةفي مقدمته من خلال تناوله بالإجابة عن ثلاثة أسئلة هامة:

أولا: لماذا كانت المدن قليلة بالمغرب؟[22]
ثانيا: لماذا يسرع الخراب إلى المدن المغربية؟
ثالثا: ما العلاقة بين المدينة وانقراض الدولة المؤسسة لها؟[23]

إنها أسئلة طرحها ابن خلدون، وأجاب عنها بما يمكن من فهم لميكانيزمات عمران المدن المغرب الوسيط، والعوامل المتحكمة فيها[24].

فهذه الأسئلة تسمح لنا بتفسير مختلف الظواهر العمرانية والاجتماعية والاقتصادية، وتفسح المجال لتطوير آفاق البحث حول مدن المغرب الإسلامي. وللأسف فانابن خلدون في تاريخه لم يجاري مقدمته في الشرح والتحليل،ولم نجد له اي اثر عند حديثه حول مدينة تبسة. فقد كانت معلوماته قليلة وشحيحة ، رغم انه أقام فيها ودخلها صيف سنة783ه/1381م واستقر بضيعته التي تسمى الرياحين لحصد وجمع محصول زراعته[25]، واقتصر حديثه عنها فقط حول علاقتها بحروب مخلد بن كيداد ضد الفواطم ومحاصرته لها ثم فتحها صلحا[26]ولعل انشغاله بضيعته ثم انشغاله بصحبة السلطان أبو العباس الحفصي شغلاه عن المطلوب !. وهكذا فقد ظل تاريخ أقاليم المدن الثانوية بعيدة عن أن تسترعي اهتمام المؤرخين الذي ظل موجها أساسا نحو الحواضر الكبرى كالقيروان وتلمسان ومراكش وفاس.

2- **المعطيات الجغرافية:** من خلال ما احصيناه في هذه المعطيات(الجـــدول) مـــن معلومـــات جغرافيـــة نســـتطيع ان نتبـــين بعـــض المعطيـــات التضاريسيةوالمتغيرات المناخية في القرون السالفة لمدينة تبسة فهي حسبها مدينة تقع في اسفل جبلين وهمـــا جبلالكتـــف وجبـــل مـــلان وهوجبل ضخم وكبيريرى من بعيد استخدمت حجارته بعد قطعها من طرف الرومان في بناء اسوار المدينة[27]واليه نسب الـــوادي-وادي ملان- وهونهر كبير كثير الفواكه والاشجار[28]،وعليه تعتمد المدينة في شربها كما كان يتم استغلال مياهه للنشـــاط الزراعـــي،لان هـــذه الوادي كاندائم الجريانبسبب كثرة الثلوج والينابيع خاصة في فصـــل الشتاء ما يؤدي احيانا الى قطع الطرق **(صعب المجاز)**ويخلف ضحايا **(كثير الدهس)** [29]. فهذه النصوص تظهرالمتغيرات المناخية الحاصلة بين تلك القرون، والزمن الحالي الذي يعتبـــر اكثـــر جفافـــا ونـــدرة للمياه.ثم يذكر الجغرافيون اهم الطرق والمسافات التي بينهـــا وبـــين المدن القريبة منها،على اعتبار انهـــا كانـــت تمثـــل مفـــرق طـــرق هـــام.فـــالطريق الـــرابط بـــين مجانـــة والقيـــروان القريبـــة مـــن الاوراس،ونواحي قسنطينة تمر في الشـــتاء عبـــر مســـكيانة تبســـة سبيبة،نظرا لانبساط الطريق وسهولة مسلكها رغم صعوبة اجتياز واد ملان القريب من تبسة في حالة فيضانه، أما في الصيف فتأخذ القوافل والسيارة طريقا اخر عبر مرماجنة[30]. وأما عن المســـافات التـــي كانت تقطعها هذه القوافلفتزودنا هذه المصادر بأطوالها فمـــثلا بينهـــا وبين قفصة ستة مراحل، ونفس المسافة التي بينها وبين ســـطيف[31]، وبينها وبين مجانة مرحلة[32].ولاحقا أصبحت تبسة كمجـــال ضـــعن

يخضع لقبيلة أو وطن هوارة البربرية ويسمى"عمل رستاق تبسا" ضمن عمل مجالي اكبر منه يسمى عمل الأربس، حيث بدأ يتشكل منذ القرن الرابع الهجري إلى أن استقر الأمر على هذا العمل عند أواخر القرن 08ه/14م[33] ومع أزمة القرنين 05ه و06ه الهجريين جعل من بعض المدن كمدينة تبسة في التلاشي وبالتالي فان العديد من القصور المكونة للمجال الأربسي –الذي يخترقه الطريق الروماني القديم الرابط بين تبسة وقرطاج– قد فقدت مكانتها لقرى وقصور أخرى. فالإدريسي في القرن السادس الهجري يحدثنا عن بعض هذه القصور وهي "**أبة**" التي تنتمي لهذا المجال(**بأن أكثرها الآن خراب**) [34] رغم انه لم يتجاوز في حديثه عن تبسة هو الأخر سوى ذكر المسافة التي بينها وبين بجاية والتي حددها بمسيرة ستة ايام [35]

3- **المعطيات الاقتصادية:** لاتخلونصوص هذه المصادر الجغرافية من بعض الاشارات، والملامح الاقتصادية التي كانت تعرف بها مدينة تبسة في القرون الوسيطة. وأول ما نبدأ به ما جاء به البكريعن مدينة تبسة التي قال فيها بأنها(**كثيرة الثمار والفواكه والاشجار**)وهوله علاقة بكثرة المياه الذي هوبدوره مرتبط بكثرة تساقط الامطار والثلوج التي تميز بها القرن الرابع الهجري ما ادى الى انتشار زراعة اشجار الجوز (**والذي كان يضرب به المثل بكبره وطيبه**). [36] وهذا ما نفتقده في مدينة تبسة واحوازها اليوم، بسبب التقهقر المناخي وتحول سكانها من حرفة الزراعة المرتبطة بالاستقرار الى حرفة الرعي المرتبطة بالتنقل بحثا عن الماء في قرون تالية. ونفس هذه المعطيات سيقدمها لنا صاحب الاستبصار في القرن السادس الهجري بانها (**مدينة لها بساتين كثيرة وفواكه عجيبة ويجود فيها الجوز حتى يضرب به المثل بإفريقية**)[37]ويبدوان زراعة شجر الجوز قد استمرت إلى القرن16ملكنمجاله كان خارج المدينة وهو من تخصص البادية –على بعد أربعة أو خمسة أميال من (حوالي 8كيلومتر)– لان مدينة تبسة(**تربتهاغير خصبة**)[38]. لكنها ستشتهر بإنتاج شيء أخر وهو صناعة نسيج الزرابي، ويبدوان شهرة زرابي تبسة قد انتشرت في الأفاق ما جعل ياقوت الحموي وهو في المشرق يسمع بهذه الصنعة ويكتب عنها(**يعمل بها بسط جليلة محكمة النسيج، يقيم البساط منها مدة طويلة**)[39].

4- **المعطيات العمرانية:** يعتبر الجانب العمراني لمدينة تبسة من بين اكثر ما أشارت اليهالمصادر العربية، فمن خلالها بينت ان سكان مدينة تبسة، قد استمروا في سكن النواة الاولى للمدينة العتيقة منذ العهد الروماني

فالبكري يعتبر تبسة (**مدينة كبيرة بنيت بالصـــخر الجليـــل**)بـــالرغم ان صاحب الاستبصار يشير في كتابه ان المسكون من مدينة تبســـة اليـــوم (**هوقصرها مسور ومحصن**) ولعله قد استحدث فـــي هـــذا العهدبســـبب تضررها من هجمات الاعراب[40] والبدووقطاع الطرق.كما انه ذكـــر مصطلحامهما من طرف المصدرين السابقي الذكر ونقصد هنا مصـــطلح **الاقباء** جمع قبو.ويظهر ان هذه الاقباء قد استحدثت قديما، واستغلها فيما بعد سكان المدينةبغرض الاحتماء من البرد والثلج.ورغم عوزنا للمراجع التي تعطينا شرحا لوظيفة وشكل وطريقة بناء هذه الاقبـــاء [41]، فانـــه يمكننا ان نستانس ببعض معاجم اللغة عند تعريف كلمة **قبو**فعند لســـان العرب القبوهو" **الطاق المعقود بعضـــه الـــى بعضـــوقبوت البنـــاء أي رفعته**"[42]واما كلمة قبو في معجم اللغة العربية المعاصرة هـــو: "**بنـــاء مستدير تحت الأرض تخزن فيه البضائع**"وقد لاحظ وجودهـــا صـــاحب الاستبصار في القرن السادس الهجري وهوشاهد عيان على هذه القبـــاء فقال عنها:"**وفي داخله (الهيكل) اقباء معقودة بعضها فوق بعض وبيوت تحت الارض وازاج كثيرة لها منظر هائل**" لكن بعـــد حـــوالي اربعـــة قرون،وفي عهد الحسن الوزان الذي زار المدينة تختفي هذه الاقباء ولـــم يتحدث عنها بـــل قـــبح دورهـــا، فـــي حـــين اعتبـــر (**ان اســـوارها جميلة**)[43].ومما سبق يمكننا القول أن هذه الأقباء توسطت المدينة فـــي داخل الهيكل، وهيعلى نوعين:

1- **اقبية مرفوعة معقودة متراصة جنبا الى جنب**
2- **اقبية ومنازل وبيوت مبنية تحت الارض**

بالاضافة الى تلك الازاج اوالبيوت المستطيلة التي تحـــدث عنهـــا صـــاحب الاستبصار. ويظهر ان هذه الاقباء كانت على سعة كبيرة حتى امكن ان تسع لاكثر من الفي دابة ولهذه الدواب مالكيهـــافيمكن احصـــائهم ايضـــا بـــالفي شخص**!!**. وبالرغم من اتفاق كل من البكري وصـــاحب الاستبصـــار حـــول هذاالرقم،فيبدولنا انه رقما مبالغ فيه نوعا ما،الا اذا كانت هذه الاقبيـــة تمتـــد طولا وتزداد عرضا لكي تستقبل هذه الاعداد الكبيرة،مـــا يمكننـــاالقول انهـــا كانت بمثابة اروقة متصلة بعضها ببعض فيها جميع الضروريات من شـــرب ومأكل وعلف للدواب فلا يعقل ان يبـــق مـــن احتمـــى بـــداخلها دون هـــذه الضروريات لعدة ايام اواسابيع.ولنصل الى فكرة ان هذه الاقباءقـــد يكتريهـــا اصحابها اويطلبون مقابلا ماديا اوعينيا لمن اراد المبيـــت فيهـــا اوالاحتمـــاء بها،من هؤلاء الرفقاء الذين جاؤوا في قوافل[44]من التجار والغرباء وعابري السبيل. فمن خلال ما ذكره البكري وصاحب الاستبصار عن هـــذه الاقبـــاء

فانها عملت داخل السور اوالهيكل ويبدوانها كانت لها وظائف محـــددة. لكـــن الشيء المحير هوما اورده لنا ياقوت الحموي عن هذه المدينـــة وهومعاصـــر لصاحب الاستبصار **(ولم يبق بها الا مواضع يسكنها الصعاليك.لان خيرهـــا قليل في بادية يسكنها العرب)** [45]فماذا حدث لمدينة تبســة حتـــى يـــذكرها ويصفها ياقوت الحموي بهذا الوصف؟ بالمقارنة مع ما ذكـــره لنـــا صـــاحب الاستبصار؟. فهل نزلت عليها نازلة اوحرب طاحنة اواصابتها فاقة اهلكـــت الضرع والزرع؟ لعل هذه الاسئلة تحتاج منا الى المزيد من البحث والتحري للوصول الى اجابة مقنعة.ونفس الحال والذي استمر مع القرون التالية مع ما جاء ذكره ذكره عند عبد المؤمن بن عبد الحق في كتابه ، مراصد الإطـــلاع عن هذه المدينة في بداية القرن الثامن الهجري الرابع عشرة الميلادي ليستمر هذا الوضع في القرون التالية.

خاتمة:

وفي الاخير يستوجب علينا ذكر مجموعة من النتائج من خلال هذه الدراســـة النقدية للمصادر التاريخية العربية التي تحدثت عن مدينة تبسة:

1- تشترك الدراسات والمصادر التاريخية للمدن في جوانب معينة، كمـــا تتباين وتختلف في جوانب اخرى، ويرجع ذلك الى الفترة التـــي تـــم فيها تدوين تاريخ هذه المدن وثقافة وشخصية هذا المـــؤرخ وخلفيـــة انتمائه لها.

2- جل المصادر التي تكلمت عن تاريخ تبسة لم يخصص لها الا بعض الاسطر مما ادى الى استحالت التوسع في اخبار هذه المدينـــة فـــي الفترة الوسيطة.

3- وقع تكرار لنفس الاخبار التي تناقلتها هذه المصادر وجلها لم يـــأتي بجديد.

4- نجد ان هناك تهميش واضح من طرف هؤلاء الرحالة للمدن بما فيها مدينة تبسة التي كانت تبدولهم هامشية ولنا مثـــال ذلـــك الادريســـي فرغم شهرته كجغرافي كتب على جـــل مـــدن وقصـــور المغـــرب الاسلامي في العصر الوسيط فان مدينة تبسة ورغم اهميتهـــا علـــى الاقل لتوسطها الطريق بين المغرب الاوسط وافريقية ولكنـــه ومـــع ذلك لم يشر اليها والى قصرهاولوبأشارة.

5- يعتبر كل من الجغرافيين البكـــري وصـــاحب كتـــاب الاستقصـــاء الوحيدين الذين زودانا بمعلومات جد مهمة عن مدينة تبسة وخاصـــة الثاني الذي من خلاله نستطيع ان ناخذ فكرة عنها في القرن السادس الهجري الثاني عشرة الميلادي.

6- مكنتنا هذه الدراسة النقدية للمصادر الجغرافية ان نعرف التدهور العمراني وعمليات التخريب الذي تعرضت له هذه المدينة عبر قرون من الزمنبسبب انعدام الامن وانتشار البداوة الذي ادى الى فقدان مدينة تبسة لمكانتها.

7- ان معظم الدراسات التي تناولت تاريخ مدينة تبسة ركزت على تاريخها في الحقبة الكلاسيكية وأهملت اهمالا كبيرا لبقية الحقب وخاصة الفترة الوسيطة.

هذه اذن جملة من النتائج التي نستطيع القول من خلالها ان دراستنا النقدية لهذه المصادر انارت لنا طريقا لفهم واقع المدينة في القرون الوسطى واهم التحولات التي تعرضت لها وانعكاس ذلك على حياة سكان مدينة تبسة اليوم.

الهوامش:

1) بن قربة صالح، أبحاث ودراسات في تاريخ وآثار المغرب الإسلامي وحضارته، دار الهدى، الجزائر،2011،ص447. فمثلا فان مدن وقصور الزاب ووادي ريغ ووادي ميزاب، تعتبر من بين المعالم الأثرية التي لم تحض هي بدورها، بأبحاث ودراسات من قبل الباحثين والمهتمين بهذا الحقل من المنشآت البشرية في شتى المجالات كمنشآت الري والزراعة والعمارة الخ...
2) ولد أيده حمد مولود، الصحراء الكبرى، ج1،دار المعرفة، الجزائر،2009.ص11
3) رأسمال عبد العزيز،البداوة والمجتمعات المستحدثة في الجزائر،(رسالة دكتوراه)،جامعة الجزائر،س-ج1985/1986ص250-251
4) محمدحسن،المدينةوالباديةبأفريقية،ج1،جامعةتونسالاولى،تونس 1999.ص289.
5) PlanhoL .Xavier, Les Fondements Géographique de L'histoire de L'islam PARIS.1968.P27 . ,ايضا ولد أيده احمد مولود،المرجع السابق،ص11.
6) العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، ط1،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،2007 ص58-68
7) نور الدين صادق، صعوبات التأريخ المحلي بالمغرب: عنوان الموقع الالكتروني:http://perso.menara.ma/~noursadiq/ecrturhistoir1.htm
8) عمارةعلاوة،موساويزينب،مدينةالجزائرفيالعصرالوسيط،مجلةالآدابوالعلومالإنسانية،العدد10،جامعةالأميرعبدالقادر،قسنطينة،2010،صص 63-64
9) المقدسي أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري(336 هـ-380 هـ)،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،ط3،مكتبة مدبولي، القاهرة،1991.ص247
10) مؤلف مجهول (كاتب مراكشي عاش في القرن 06ه/12م) ،الإستبصار في عجائب الأمصار، ت سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، دون تاريخ. (مقدمة المؤلف صفحة ت).
11) الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ت960ه/1553)،وصف إفريقيا، ت محمد حجي،محمد الأخضر، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1983 ص10.
12) المقدسي أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري (336 هـ-380 هـ)، المصدر السابق،ص247.
13) مؤلف مجهول (كاتب مراكشي عاش في القرن06ه/12م)، صاحب الاستبصار، المصدر السابق،ص 162.
14) المصدر نفسه، راجع مقدمة الكتاب ص:ج+خ+د.

15) ياقوت الحموي،شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (574 - 626 هـ معجم البلدان،المجلد الثاني، دار صادر بيروت، دون سنة، ص13
16) عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين (المتوفى: 739ه)ـ، مراصد الإطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، ت علي محمد البجاوي، ج1،ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت،1954. ص252.
17) الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ت960ه/1553)، المصدر السابق،صص63 -64.
18) لحسن تاوشيخت، عمران سجلماسة،ج1،ط1، مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء،2008، ص293.
19) ابن خلدون عبد الرحمن(732ه-808ه)،ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر، بيروت. 2000. ج07.ص20
20) البكري ص ص145
21) ياقوتالحموي،المصدرالسابق،ص13
22) ابن خلدون، المصدر السابق،(المقدمة)، ص ص147-148
23) المصدرنفسه،ص 149
24) بوتشيشالقادربوتشيش،تاريخالمغربالإسلامي،ط01،دارالطليعةللطباعةوالنشربيروت.1994. ص127.
25) المصدر نفسه، ج7، ص648.
26) المصدرنفسه،ج7،ص 20.
27) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص64.
28) البكري، المصدر السابق، ص145.
29) صاحب الاستبصار،المصدر السابق، ص163.
30) الهادي روجي ادريس، الدولة الصنهاجية،ت حمادي الساحلي، ج02، ط01، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1992. ص82
31) ياقوت الحموي،المصدر السابق، ص13
32) المقدسي، المصدر السابق، ص347.
33)محمد حسن، الجغرافيا التاريخية للإفريقية، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2004، ص232.
34) المرجع نفسه، ص ص240-241.
35) الشريف الإدريسي،(علماء القرن 06ه) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،م1،ط01 ،عالما لكتب،بيروت،1989. ص260.
36) البكري، المصدر السابق، ص49-145.
37) صاحب الاستبصار، المصدر السابق،ص163.
38) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ص64-65
39) ياقوت الحموي،المصدر السابق،ص13.
40) الهادي روجي ادريس، المرجع السابق،ص82.
41) لقد اشار الهادي روجي ادريس الى هذه الاقباء فقد اعتبرها بمثابة اصطبلات خصصت للدواب رغم ان البكري وهواول من اشار الى ذلك كان واضحا في قوله" يدخلها الرفاق بدوابهم في زمن الثلج والشتاء" أي أن هذه الأقباء لم تكن مخصصة فقط للدواب بل أيضا لأصحابها وبقية المسافرين.
42)ابن منظور ابي الفضل، لسان العرب، مجلد15، دار صادر، بيروت، دون سنة. ص ص168-169.
43) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص63.
44) الهادير وجيادريس،المرجع السابق،ص82.
45) ياقوت الحموي،المصدر السابق،ص13.